سلسلة قصة آية

الحب والبغض في الله

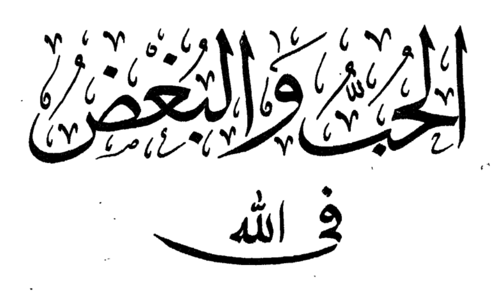
بقلم د/ محمد عبد العظيم

تحقيق ومراجعة/ قسم التحقيق بالدار

دار الصحابة للتراث بطنطا

سلسلة قصة
آيــــة

(٤)



بقلم د / محمد عبد العظيم

تحقيق ومراجعة / قسم التحقيق بالدار



كتاب قد حوى دررًا بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبيهاً

دار الصحابة للتراث بطنطا

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ . ١٩٩٥ م

المراسلات / دار الصحابة للتراث بطنطا .
طنطا ش: المديرية بجوار محطة بنزين التعاون
ص ب / ٤٧٧ ت : ٣٣١٥٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ياأيهَا الذينَ آمنوا لا تتخذُوا عدوِّى وعدوِّكمْ أولياءَ تُلقُونَ إليهمْ بالمودَّة، وقدْ كفرُوا بمَا جاءَكُمْ منَ الحقِّ يخرجُونَ الرسولَ وإيّاكم أنْ تؤمنُوا بالله ربّكمْ إنْ كنتمْ خَرجتُمْ جهاداً فِى سبيلى وابتغاءَ مرضاتِى تُسرُّونَ إليهمْ بالمودَّة وأنَا أعلَمُ بمَا أخفيتُمْ ومَا أعلنتمْ ومنْ يفعلْهُ منكُمْ فقدْ ضَلَّ سوَاءَ السَّبيلِ﴾ .

سورة الممتحنة آية (١)

بين يدى الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمدٍ وآله وصحبه وسلم. . وبعد

فالعلاقةُ بين طوائف الأمة فى الإسلام علاقةٌ مضبوطةٌ بشرائع وضوابطَ تضمن لهذه الأمة المسلمة ألا ينفرط عقدها، وألا ينفك رباطها. . وألا يتسرب الوهن إلى صفوفها، أو ينخر السُّوس فى بنيانها أو تؤتى من مأمن، أو تُضْرَب فى مقتل. .

علاقات محكومةٌ بما أنزل الله تعالى من آيات، وما فرضه على الأمة من فرائض، وبما أودعه طى القرآن من آيات مبينات وأحكامٍ مُفَصَّلات. .

وهى علاقات تحكم الأمر بين المسلم والمسلم، وبين المسلم وأهل الكتاب ـ من يهود ونصارى، وبين المسلم وأهل الإلحاد والكفر. .

والآية التى بين أيدينا. . وهى صدر سورة الممتحنة.

تصور جانباً خطيراً من الآثار المترتبة على اتخاذ أعداء الله وأعداء الإنسانية، أولياء وأنصاراً وأعواناً. .

ذلك لأنه مهما ابتسم الكفر فى وجه الإيمان، فهى ابتسامة الذئب للحمل،[١] أو الليث [٢]للفريسة. .

وصدق الذى صور ذلك فقال:

---

(١) الحمل: صغار الغنم والماعز.

(٢) الليث: الأسد.

إذا رأيتَ نُيوبَ اللَّيث بَارزة   فلا تَظننَّ أنَّ الليثَ يَبْتَسِمُ

والحق، أن الكُفْر كُلَّه ملةٌ واحدة. . وأن أعداء الإسلام لا يصْفون للمسلمين أبداً. . مهما تبدى فى الأفق من سلامة العلاقة، وجريان الريح رخاء ـ والتاريخ ـ قديمه وحديثه ـ خير شاهد، ودليل على ذلك. .

وسنرى أَنَّ موالاة الأعداء من الجرائم التى يستحق صاحبها أن يُطرد من مجتمع المسلمين، وأن تكتب عليه لعنة الله. .

غير أن للآية التى نحن بصددها ظُروفاً وملابسات تحتاج إلى إيضاح، وتتطلب كَشْفَ اللّثَام عَنْها، وإزَاحةَ الستار الذى عليها. .

والواقع أنى قصدت ـ بالتعرض لهذه الآية ـ أن أُشير إلى طبيعة الصراع بين الحق والباطل، فضلاً عن التعرض لمناسبة نزول الآية فى وقت كانت رحى الإسلام تدور لتجهز على البقية الباقية ـ وهى كثيرة منتشرة ـ من آثار الشرك الذى استعلى على الحق والإيمان حسداً وبطراً وعصبية. . .

هذا، وإنى لأرجو رحمة ربّى، وتقبله لهذا العمل فى الصالح من أعْمَالِنا، فالقصد إليه، والمرجع والمآب لجنابه.

ـ هو فى عليائه. . .

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

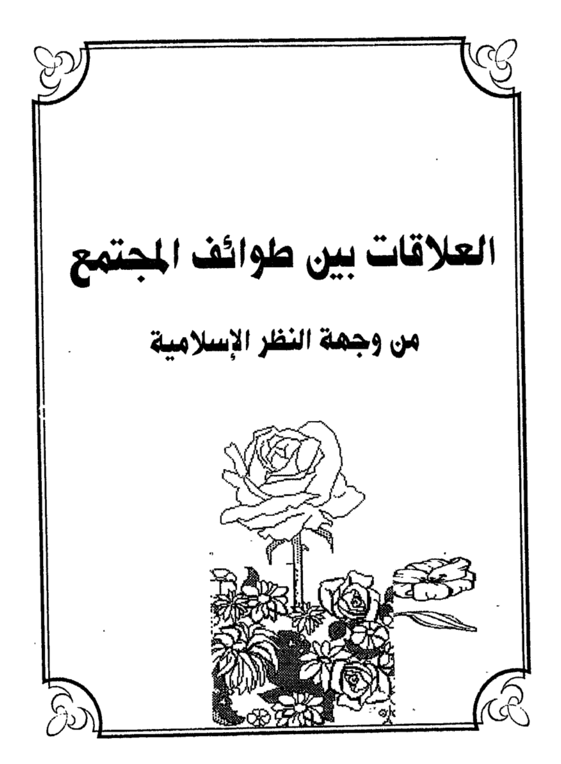
﴿والعصر إن الإنسان لفى خُسْر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾

فى الثامن من شوال ١٤١٤هـ

الموافق: العشرين من مارس ١٩٩٤م.

د/ محمد عبد العظيم لماضة

(عاطف لماضة)



العلاقات بين طوائف المجتمع

من وجهة النظر الإسلامية

أولاً: علاقة المسلم بأخيه المسلم

لا تجد ديناً أصَّل فى نفوس أتباعه محبة بعضهم البعض وحدبهم[1] على أنفسهم، وجعل ذلك بناءً نفسياً.. وأمراً تعبُّدياً يتقرب به الإنسانُ إلى ربه، وينال بذلك الدرجات العُلَى، والمنزلة الأسمى.. مثلما كان الإسلام..

فجعل الرابطة بين المسلمين بعضهم ببعض أقوى من رابطة الدم، واللون، واللغة، والوطن، والمصالح المادية...

رابطة تجعل بنيان المجتمع متماسكاً قوياً لا يستطيع عدوٌّ أن يدك هذا البنيان، أو يقوض دعائمه..

تلك الرابطة هى رابطة «الأُخُوة فى الله عز وجل»..

رابطة دعائمها الإيمَان

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[2].

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[3].

وثمرتها .. بقاء هذا المجتمع، وسلامته، ودوام أمنه واستقراره..

وجزاؤها .. الرضوان الأعلى، والالتقاء فى فيض نور الله، والتبوّؤ فى مقاعد الصدق التى وعد الله تعالى بها المؤمنين.

«المتحـــابون فى جـــلالى، لهم منابر من نور يغبطهم النبيُّون والشهداء»[4].

---

(١) حدبهم: عطف بعضهم على بعض.

(٢) سورة الحجرات الآية: ١٠.

(٣) سورة التوبة الآية: ٧١.

(٤) حديث صحيح: أخرجه أحمد(٥/ ٢٣٦، ٢٣٩) والترمذى(٢٣٩٠)، والحاكم(٤/ ٤٢٠) وأبو نعيم (٥/ ١٢٢) فى الحلية، عن معاذ بن جبل، وفى الباب عن ابن عمر، وعمر، وأبى هريرة.

وللإسلام دورٌ رائع فى فض المنازعات بين المسلمين إذا اختلفت طوائفهم، أو تنازعت جماعتهم. تبرزه هذه الآية الكريمة **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنَّ الله يحب المقسطين﴾**(١).

هكذا حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين كله لله، وحتى لا تؤتى الأمة المسلمة من مأمن، ولا يأتيها الوهن من بين أبنائها وفوق هذا .. فالإسلام وضع للمسلم حقوقاً من شأنها إشاعة المحبة والاستقرار فى الصف المسلم.

«لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يحقرُه ولا يخذُلُه. التقوى هاهنا- ويشير إلى صدره ثلاث مرات- **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاهُ المسلم. كل المسلم على المسلم حرام دَمُهُ ومالُه وعرْضهُ»**(٢)

فهذا جانب من الجوانب المضيئة التى وضعها الإسلام لصورة العلاقة بين المسلم وأخيه .. وقد أفردت كتُب الفقه أبواباً فى هذا الأمر ولا مجال لإعادته هنا.

الحب فى الله

(١) سورة الحجرات: آية: ٩

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم(٢٥٦٤)، وأحمد(٢/٢٧٧، ٣٦٠)، وأبو داود(٤٨٨٢)، والترمذى(١٩٩٢)، وابن ماجه(٤٢١٣) وفى الباب عن ابن عمر، وواثلة بن الأسقع.
والنَّجش: أن يزيد فى ثمن سلعة يُنادى عليها فى السوق ولا رغبة له فى شرائها، بل يقصد أن يغرَّ غيره.
والتدابر: أن يعرضَ عن الإنسان ويهجره، ويجعله كالشىء الذى وراء الظهر.

ثانياً: علاقة المسلم بغيره من غير المسلمين

يقولُ صاحب كتاب فقه السنة:[1]

« علاقة المسلمين بغيرهم علاقة تعارف، وتعاون، وبر، وعدل».

يقول الله سبحانه فى التعارف المفضى إلى التعاون: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم..﴾**[2]

ويقول فى الوصاية بالبر والعدل:

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إنَّ الله يحب المقسطين﴾[3]

ومن مقتضيات هذه العلاقة تبادل المصالح، واطراد المنافع فى تقوية الصلات الإنسانية.

وهذا المعنى لايدخل فى نطاق النهى عن موالاة الكافرين، إذ إن النهى عن موالاة الكافرين يقصد به النهى عن محالفتهم ومناصرتهم ضد المسلمين، كما يقصد به النهى عن الرضا بما هم فيه من الكفر، إذ أن مناصرة الكافرين على المسلمين فيه ضرر بالغ بالكيان الإسلامى، وإضعاف لقوة الجماعة المؤمنة، كما أن الرضا بالكفر، كفرٌ يحظره الإسلام ويمنعه..

أما الموالاة بمعنى المسالمة، والمعاشرة الجميلة، والمعاملة بالحسنى، وتبادل المصالح، والتعاون على البر والتقوى، فهذا مما دعى إليه

---

(١) الأستاذ/ سيد سابق، الجزء الثالث ط. دار الريان للتراث.

(٢) سورة الحجرات الآية: ١٣.

(٣) سورة الممتحنة الآية: ٨.

الإسلام"ا. هـ

فالأمرُ واضحٌ إذن.

علاقة المسلم بغير المسلم هى علاقة إنسانية فى المقام الأول: من حسن جوار، ومعاشرة، ومعاملة.. وطيب حديث[1]

فإذا بدا فى الأفق تآمر، أو اعتداء على الإسلام، أو تدبير للدسائس والمكائد حرباً لله ورسوله.. كانت العداوة، والمقاطعة، وأخذ الحذر والإستعداد للحرب..

والقرآنُ يُوضِّحْ لَنا نماذج من هذه العلاقة بين المسلم وغيره: فى إعلان البراءة من الشرك والمشركين..

﴿قد كانت لكم أسوة حسنةٌ فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرَءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾[2]..

وواضحٌ أنَّ العداوة والبغضاء المتبادلة بين الفريقين كانت لعداوة المشركين وحربهم لله وللخليل إبراهيم عليه السلام، وذلك واضح فى سيرة الخليل إبراهيم..

والخلاصة:

"فالمسلم يرى أن كل من لم يَدِن لله تعالى بالإسلام فهو كافر، ويلتزم حياله بالآداب التالية:

---

(١) وزيادته: إذا كان الأمر دعوة" لدعوته إلى الإسلام"

(٢)سورة الممتحنة الآية: ٤

١ـ عدم إقراره على الكفر، وعدم الرضا به، إذ الرضا بالكفر كفر.

٢ـ بغضه لبغض الله تعالى له، لأن المؤمن يحب فى الله، ويبغض فى الله.

٣ـ عدم موالاته ومودته لقوله تعالى: ﴿**لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين**﴾(١).

٤ـ إنصافه والعدل معه وإسداء الخير له، إن لم يكن محارباً لقوله تعالى ﴿**لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إنَّ الله يحب المقسطين**﴾(٢)

فقد أباحت هذه الآية الكريمة المحكمة الاقساط إلى الكفار وهو العدل، وإنصافهم، وإسداء المعروف إليهم، ولم يستثن من الكفار إلا المحاربين فقط، فإنً لهم سياسة خاصة تعرف بأحكام المحاربين.

٥ـ رحمته بالرحمة العامة كإطعامه إن جاع، وسقيه إن عطش ومداواته إن مرض، وكإنقاذه من تهلكة، وتجنبه الأذى لقوله ﷺ «**ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء**»(٣)

٦ـ عدم أذيته فى ماله أو دمه أو عرضه إن كان غير محارب.

٧ـ جواز الإهداء إليه وقبول هديته وأكل طعامه إن كان كتابياً (٤) اهـ.

---

(١) سورة آل عمران، الآية:٢٨.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

(٣)**حديث صحيح**: أخرجه الطبرانى(٢٥٠٢) فى الكبير من حديث جرير، ومن حديث ابن مسعود أخرجه الطبرانى(١٠٢٧٧) فى الكبير، وفى الصغير(١٠١/١)، والبغوى(٣٤٥١) في شرح السنة، وأبو نعيم(٤/ ٢١٠)فى الحلية،وله شواهد.

(٤) «صلة الرحم» للأستاذين محمد مجاهد طبل، وأبى حذيفة إبراهيم بن محمد. إصدار دار الصحابة للتراث بطنطا

[٢]

قِصَّة الآيَة



قصة الآية

قال الله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء، تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تُسرُّون إليهم بالمودة وأنا أعلمُ بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾(1).

فهذه آية.. تلتها آيتان من صدر سورة الممتحنة ـ نزلت في واحد من أجلّ صحابة رسول الله ﷺ وأعظمهم مكانة.. هو حاطبٌ بن أبى بلتعة رضوان الله عليه.. الذى أسلم فى مكة، وهاجر إلى المدينة ليؤاخى رسول الله ﷺ بينه وبين رُخيلة بن خالد، وشهد حاطبٌ بدراً، وأحُداً، والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

وكان من ضمن رسُل رسول الله ﷺ الذين حملوا رسائل النبى ﷺ إلى الملوك والأمراء يعرض عليهم الإسلام.. فبعثه ﷺ إلى المقوقس صاحب الإسكندرية..

وكان فوق ذلك تاجراً يبيعُ الطعام ويتكسب قوته من عمل يده.

فهذا سجل حافلٌ بمفاخرِ الجهادِ.. والعمل الدؤوب فى خدمة الإسلام..

فماذا عساهُ أن يكون وراء هذه الآيات التى حملت لَوْماً، وتقريعاً، وتوبيخاً..

---

(1) سورة الممتحنة: آية 1.

هل فعل حاطبٌ مؤاخذةً، أو إثماً عظيماً، أو جناية كُبرى أو خان الله ورسوله؟!!

إن الآيات تحمل طرفاً من كل ذلك...

هل اتخذ حاطبٌ من المشركين أولياء من دون الله؟!!

هل أدلى لهم بدلو المودة عصياناً وخروجاً عن مقتضيات التزام المسلم بدستوره الإسلامى؟!!

وإذَا حدث منه ذلك أفلا يستحقُّ الطردَ من حظيرة الإسلام؟!

أو على الأقل تناله العقوبة الملائمة بالخائن الأثيم؟

سنرى عاقبة ذلك كُلّه حين نستعرضُ الأحداثَ التى واكبتها نزول الآيات.

الحب فى الله

ارهاصات فتح مكة

حين أبرمت معاهدة الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش، وجد المسلمون فى شروطها ظلُماً لهم وجوراً على حقوقهم..

وُخلاصة المعاهدة:

١ـ أنْ تَضَعَ الحرب أوزارها بين قريش والمسلمين عشر سنوات..

٢ـ أن لا تعتدى قُرَيشٌ على المسلمينَ وحلفائهم.. وكذلك الأمر بالنسبة للمسلمين.

٣ـ أن من ذهب من المسلمين إلى قريش ـ تاركاً دينه ـ فلا ترده قريشٌ إلى محمد وأصحابه!

٤ـ وأن من ذهب من قريش إلى المسلمين ـ راغباً فى الإسلام ـ يرده المسلمون إلى قريش.

٥ـ أن يرجع المسلمون فى عامهم هذا، فلا يدخلون المسجد الحرام على أن يعودوا فى العام القادم، فيعتمرون خلال ثلاثة أيام تُخَلى قريش بينهم وبين البيت الحرام.. وليس مع المسلمين من سلاح غير السيوف فى قرابها[1].

واشترط من بين بنود المبايعة أن من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد محمد وعهده.

وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم[2].

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «تحت ظلال الحديبية».

(٢) سيرة ابن هشام ج٣/ ٧٨٢ دار البيان العربى.

ولقد رأى طائفةُ من أصحاب رسول الله ﷺ أنَّ هذه المعاهدة ظالمة جائرة.. تنازل فيها المسلمون عن كثير من الحقوق خاصة فيما يتعلق بتسليم مَنْ يأتى من قريش مسلماً وإعادته إلى قريش، فهذا الشرط كان جائراً بالمسلمين.

لكن من امتلأت قلوبهم يقيناً قالوا: إنه رسول الله ولن يضيعه الله..

وكان الخير كلُّ الخير فى هذه المعاهدة، إذ إنها فتحت الطريق أمام دخول المسلمين دون قتال أو حرب..

ذلك لأنه لم يمض عامان على توقيع المعاهدة حتى نقضت قريش عهدها وساعدت فى الاعداء على خزاعة والنيل منها..

فوفد وفدُ خزاعة إلى النبى يستنصرون رسول الله برئاسة «عمرو بن سالم» فأنشدَ عمرو رسول الله هذه الأبيات:

ياربّ إنى ناشدٌ محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم وُلْداً وكنّا والداً ... ثُمَّتَ أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا ... وادعُ عبادَ الله يأتوا مددا
فيهم رسولُ الله قد تجردا ... إن سيم خَسْفَاً وجهه تَربَّدا
فى فيلقٍ كالبحر يجرى مُزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لى فى كَدَاء رُصَّدَا
وزعموا أن لستَ أدعو أحداً ... وهم أذلّ وأقلّ عددا
هم بيّتونا بالوتير هُجَّدَا ... وقتلونا ركعاً وسجداً

والأبياتُ في مجملها تشكو عدوان قريش، وادعاءها أن محمداً لن ينصر خزاعة، فهم أذل وأقل عدداً، ويطلبُ عمرو بن سالم من رسول الله ﷺ النُّصرة والتأييد والمدد.

فقال النبى ﷺ، نُصرت يا عمرو بن سالم[1].

وبدأ الرسول ﷺ يستعد لغزو قريش وفتح مكة، لكنه أراد ﷺ أن يكون فتح مكة دون إراقة للدماء، أو قتل، أو نحو ذلك، فمكة عزيزة عليه، وأحب بلاد الله إلى الله وإليه، وفيها رحمه ونسبه، وفيها من المسلمين المستضعفين الذين يكتمون إيمانهم الكثير.

فكانت إرادته ﷺ أن يتم الأمر في غاية السّرية والكتمان.. وتحقيق المفاجأة التامة لقريش حتى لا تأخذ أهبتها ولا تستعد فينشب قتالٌ وتُراقَ دماء..

أمر الرسول أهله أن يجهزوه للحرب...

وكتم أمر مسيره إلى مكة عن الناس إلا قليلاً من خاصتة وأصحابه.. كزوجته عائشة، وصاحبه أبى بكر وعمر وطائفة خاصة من الصحابة فيهم الصحابيّ حاطب بن أبى بلتعة ولكى يضمن رسولُ الله ﷺ ألا يتسرب خبر الإعداد لدخول مكة إلى قريش، جعل على رؤوس الطرق حُرّاساً..

يمنعون القادم من مكة أو الذاهب إليها..

وكأن القائل يقول

---

(١) حديث حسن: أخرجه ابن إسحاق فى المغازى، وعنه البيهقى (٩/ ٢٣٤) فى سننه الكبرى، وفى الدلائل(٥/ ٦-٧) وله طرق أخرى مستوفاه فى «السيرة النبوية»لابن هشام طبعة دار الصحابة للتراث بطنطا.

«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نَبْغَتَها فى بلادها»

كُلُّ هذا التكتم وهذا الحذر منْ رَسُولِ الله ﷺ ليس تكتيكاً حربياً، وخطة ينالُ بها نَصْراً سريعاً.. أو مْغَنماً حربياً يَتحدّث بأمره الركبان!! ويتغنى بعبقريته الكماةُ [1] والشجعان!!

وإن كانت العظمةُ الحربية بارزةً فى هذا التصرف، وإنما كان يهدف إلى أن يخرجَ هذا العمل الحربى نظيفاً دون إراقة الدماء.. رحمة بأهله ورأفة بهم..

وبعد هذا كله فمن ذا الذّى يتجاسر [2] ويكشف خطة رسول الله؟

إن من يكشف سر رسول الله الحربى هو خؤون مارق فلننظر ما حدث!

ولننظر كيف كان الحكمُ والتصرف على من حاول إذاعة السّر، وتنبيه الغافلين من أهل مكة؟

الحب فى الله

(١) الكماةُ: الشجعان الجرءاء.

(٢) يتجاسر: يجرؤ.

وقفت سارةُ مولاةٌ[1] رَجُلٍ من بنى عبد المطلب على باب مسجد رسول الله ﷺ تستأذن الداخلين فى أن تلقى رسولَ الله ﷺ. .

كانت سارة تقدم بين الحين والحين تمتار[2] من رسول الله ﷺ وتطلبُ الصِّلة. . فيحمل لها رسول الله من خير يثرب. . ومما فى أيدى المسلمين من فىء وغنيمة ومتاع. .

وبهذا العطاء يحفظ رسول الله ﷺ لمولاة بنى عبد المطلب حق الرحم والأهل والمودة. .

ولَمَّا علم رسولُ الله ﷺ بمقدمها طلب إلى أصحابه أن يجهزوها بما يكفيها. . فأعطوها حمل بعير. . .

وقفلت تمسك بِمِقْود بعيرها تجاه مكة. . .

كان «حاطبُ بن أبى بلتعة» يَرْقبُ ما يحدث. .

ولما بدا له أن المرأة قد يممت وجهها شطر مكة. .

أسرع فى أثرها. .

لَحِق حاطبُ بسَارّة وهى توشك أن تغادر بيوت يثرب، وكان حاطبُ يعرفها قبل الهجرة فهى مولاةٌ فى بيت من بيوت بنى عبد المطلب. .

سأل حاطبُ سارة عن حال الأهل فى مكة، فقد خَلّفَ وراءه أولاده. . وأمه. .

وقد كان هذا الأمر يُسَبِّبُ ألَماً لحاطب، وقلقاً شديداً، وقلقه ينبعُ من أنه لم يكن من أهل مكة الأصليين لكنّه كانَ مُحَالفاً[3]، ويخشى

---

(١) مولاة: أمَة.

(٢) تمتاز: تطلب الميرة، والميرة الطعام.

(٣) محالف: هو من يلتحق بقبيلة ويحالفها، وهو ـ أصلاً ـ من قبيلة أخرى.

على أولاده وأمه أن يصيبهم بطش أهل مكة، وكان قلقه يزدادُ كلما ارتفعت حدة الأحداث بين قريش والمسلمين..

وكلما حاقت بقريش هزيمة، كان قلق حاطب على أهله يزداد..

قال حاطبٌ لسارة:

ماذا لو أسديت إلىّ معروفاً؟

قالت المرأة:

أى معروف تريد؟

قال:

لَنْ أُحَمِّلك من الأمر ما لاتطيقين!

نظرت المرأة إليه فى اهتمام..

وتابع حاطب حديثه:

هى رسالةٌ مكتوبة، تحملينها إلى زعماء قريش..

قالت المرأة:

وماذا أصيبُ لقاء ذلك؟!

قال حاطب:

سأجعل لك حملَ بَعير.

لمعت عينا المرأة، وقالت متلهفة:

لا بأس وأَنَاخَت بعيرها خلف أكمة فى انتظار أن يأتيها حاطب بن أبى بلتعه ـ برسالته.

دلفَ حاطبُ داخل منزله، وعمد إلى رقعة من جلد بعير كان قد

أعدها لتدوين بعض آى القرآن الكريم . .

وأخذ يُسَطِّرُ كَلمات، قليلة، هى محتوى رسالته إلى قريش فماذا كتب فيها؟!!

كتب حاطب بن أبى بلتعة:

«إن رسول الله قد توجه إليكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، وأقسمُ بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه منجز له ما وعده»[1].

وختم حاطبٌ رسالته بخاتمه، ولَفَّها لفاً محكماً، ثم دسها فى عباءته، وخرج لا يلوى على شىء حتى أدرك المرأة، وهو يسحب خلفه بعيراً قد احتمل زاداً ومتاعاً . .

أسلَمَ حاطبٌ مقود البعير للمرأة، ودفع إليها بالرسالة . .

وأخذ يحذرها من مغبة الطريق، والعيون التى بثها رسولُ الله ﷺ على أفواه الطرق والشعاب، ويوصيها ألا تتهاون فى إخفاء الرسالة، وأن تتخذ من الطرق غير ما اعتادتها القوافل فى ذهابها وإيابها ولم يطمئن حاطب إلا بعد أن أعطته العهود والمواثيق أنها لن تفرط فى الرسالة، وأنها ستضعها فى مكان لا يخطرُ على بال إنسٍ ولا جان . .

وتمنى لها رحلة طيبة، وودعها، وهو مضطرب الفؤاد قلق النفس موزع الخاطر . . واتخذ طريقه تجاه المدينة ميمماً وجهه شطر المسجد النبوى ليلحق بجموع المصلين، فقد أوشك أذان الظهر أن يرتفع، وظل

(١) ذكر ذلك ابن إسحاق وذكرها صاحب البداية والنهاية إمام عصره ابن كثيره ج٤/ ٢٨٤.

طوال الطريق يسأل نفسه:

أتراني أخطأت الوسيلة أم أنّ لي المعذرة في ذلك؟!!

في مسجد رسول الله.

كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق لفتح مكة..

وعلمنا أن رسول الله ﷺ قد كتم وجهته إلى مكة، إلا أن أفرادا قلائل هم الذين كانوا يعلمون بحقيقة المهمة التى أعدَّ لها رسولُ الله ﷺ العُدَّة، واتخذ لها الاستعداد والأهبة، ومن هؤلاء: حاطب بن أبى بلتعة.

أما بقية الصحابة.. فكلهم يعرف أنَّ النبى متوجه لقتال الرُّوم.

ولم يُعلم رسولُ الله ﷺ الناسَ بجهته إلى مكة إلا قبل أيام من الغزو. جلس حاطبٌ بن أبى بلتعة فى المسجد عُقيب الصلاة يختم صلاته بالأذكار والأوراد التى شرعها لنا رسولُ الله ﷺ..

وما هى إلا لحظات حتى لوحظ أنَّ النبى ﷺ يُوحى إليه، فران صمتٌ ثقيلُ على الحاضرين، حتى سُرّى عن رسول الله ﷺ، فمسح عن جبينه العرق الذى كان يسيلُ منه كما تسَّاقط حبات الجمان[1]..

وانتظر الصحابة أن يَقُص عليهم ما نزل به جبريل، غير أنَّ رسول الله ﷺ لم يخبر أحداً بمضمون الوحى.

وأمر باستدعاء على بن أبى طالب، والزبير بن العوام، والمقداد رضى الله عنهم أجمعين.. فحضروا سِراعاً يلبون نداء النبى ﷺ.

والتف ثلاثتهم حول النبى.. فبادرهم رسول الله قائلاً:

---

(١) الجمان: الفضة.

«انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[1] فإن بها ظعينة[2] معها كتاب فخذوه منها»[3] . .

فنهضَ الرِّجالُ الثلاثَة . . وامتطوا ظهور الجياد ينهبون الأرض نهباً، ويطوون المسافات طيّاً . . ويسابقون الريح والزمن وكل شيء . . فهم يلبون أمر النبى ﷺ .

ونهضَ حاطبُ من المسجد إلى بيته، وهو لا يدرى عما نزل من الوحى شيئاً . . ولا عن المهمة التى خرج من أجلها أعظم ثلاثة من محاربى المسلمين شيئاً . .

ودخل بيته وهو مطمئنٌ تمام الاطمئنان إلى نجاح المرأة التى حمَّلها رسالته إلى قريش.

واصلت المرأةُ سَعْيَها، تقطع المسافات وتطوى المراحل حتى وصلت إلى مكان يُسمى روضة خاخ» . . .

فجلست تلتقط أنفاسها . . وتعطى لراحلتيها فرصةً للراحة، وتَبَلغ الزاد، وعبَ الماء . . والتماس الظِّل وقبل أن تَبْسُطَ المرأةُ فراشها طلباً للراحة . . .

كانت سحابة من الغبار الكثيف تخفى فى داخلها ثلاثة فرسان . .

ما لبثوا أن ترجلوا قُبَالة المرأة، وتوجهوا إليها ثم سألها الإمام على ابن أبى طالب:

أين الرسالة التى معك؟

---

(١) روضة خاخ: اسم مكان بالقرب من المدينة.

(٢) ظعينة: أى امرأة مسافرة.

(٣) **حديث صحيح**: أخرجه البخارى (٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤) وابن أبى شيبة (٧/ ٥٣٩) فى مصنفه.

قالت المرأةُ ـ وهى كاذبة :

ما معى شىء؟

فعمد الإمام علىّ ومن معه ففتشوا متاع المرأة، والراحلتين فلم يَعثُروا عَلَى شىء .

فقال على:

أصدقينا الحديث:

ما كذبَ الله رسولَه، ولا كذبنا رسولُ الله، إن لم تخبرينا عن مكان الرسالة.. لنقومن بتجريدك من ثيابك!!

ولم يكن قصد الإمام علىّ أن يعتدى على الحرمات، أو يكشف سوأة المرأة فهو أكرم الناس وجهاً..

ولكنه ـ رضى الله عنه ـ كان يهدفُ من وراء ذلك إلى تهديد المرأة، وبيان أنَّه لن يتركها حتى يعثر على الرسالة.. مهما كلفه ذلك؛ لأنه يعرفُ أنَّ الرسالة معها كما أخبره رسولُ الله ﷺ، فالأمر لا يحتملُ التَّهاونَ من عَلِىٍّ وصاحبيه، ولا تُقبل فيه المناورةُ من المرأة..

إذن فهو الإصرار من علىٍّ وصاحبيه على الحصول على الرسالة!

وأمام هذا الإصرار، انهارت مقاومة المرأة..

وأخرجت الرسالة من مكان لا يتطرق إليه فكر إنسان، ففكت ضفائرها ـ وكانت النساء تصلُ شعرها بشعر آخر تطيلُ به شعرها مبالغة فى إظهار طول شعرها .(١)

وظهرت الرسالة مفتولة طى جدائل شعرها كأنها جزءٌ منه..

---

(١) لعن رسول الله ﷺ الواصلة: التى تصل شعرها بشعر آخر ليس من جنس شعرها..

وسلمت الرسالة إلى علىّ وصاحبيه، فأخذها علىّ مطوية كما هى ووضعها فى ثيابه، ثم قفز على جواده ولكزه بقدميه.. وأرخى له العنان فانطلق الجواد يضرب الصخور بقدميه.. ويثيُر الغبار حواليه.. وتبعه فى أثره جوادا الفارسين الآخرين الزبير والمقداد..

وتركوا المرأةَ خلفهم ذاهلةً عما حدث... مندهشة لما جرى...

وقد تركوها لأن أسر المرأة لم يكن هدفهم، بل الحصول على الرسالة كان غايتهم، خفت صهيلُ الخيل[1].. وأطلق أحدها آخر حمحمة له بعد هذه الرحلة السريعة إلى (روضة خاخ)... وضرب جوادٌ آخر الأرض بحافره.. وتشمم الثالث ثرى يثرب وتوقفوا خارج مسجد رسول الله..

ودخل ثلاثتهم عليهم آثارُ السفر، وتتابع أنفاسهم يحكى وعورة الطريق، ووعثاء الرحلة..

وألقوا التحية على رسول الله ﷺ، ثم أعطى علىٌّ الرسالة إلى رسول الله ﷺ.. ففضها ﷺ، ودفعها إلى من بجواره فقرأها، فإذا هى ـ كما علمنا ـ من حاطب إلى أبى سفيان ومن وراءه من قريش، يخبرهم بقدوم رسول الله إليهم فى جيش لا طاقة لهم به..

وهُنا لا يسع كل منصف إلا أن يقف أمام حكمة رسول الله، وعظمته، ومهارته فى اتخاذ القرار المناسب...

لم يصدر الرسول ﷺ أمراً متهوراً.. وحاشاه ذلك ﷺ ونحن أمام قضية أقلٌّ ما يقال فى وصفها: إنها قضيةُ خيانة عظمى... لإفشاء جندى من جنود النبى أسرار الجيش، وأسرار القائد الأعلى للجيش.

---

(١) صهيل الخيل: صوتها الذى تصدره.

وهو جندى نال الدرجات العُلا . . . حين كان من المشاركين فى غزوة بدر الكبرى . .

وإذ يصدر منه هذا العمل، فلا شك أن دوافعه قوية ولكن . . كيف استباح لنفسه أن يفشى سر رسول الله ﷺ، وسر جيشه؟

ولقد كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ جالساً مع النبى ﷺ يتلمظ[١] تلمظ الأسد الذى انتهكت حقوقه، ويوشك أن يقطع رقبة من فعلها، لكنه لا يملك ـ رغم هذا الغضب المستعر ـ إلا أن يكظم غيظه، ويكبح جماح ثورته فى انتظار ما ستسفر عنه محاكمة صاحب هذا التصرف الطائش . .

فلننتظر نحن ـ أيضاً ـ ما ستسفر عنه تلك المحاكمة، فإنا لعلى يقين من إنصاف القاضى وعدالة المحكمة . . .

الحب فى الله

(١) يتلمظ: يقال : تلمظت الحية: أخرجت لسانها.

المحاكمة



المحاكمة

استدعى حاطب بن أبى بلتعة على عجل..

فاندفع إلى ساحة المسجد يلبى نداء القاضى العدلِ رسولِ الله ﷺ.

كان مستشارو النبى ﷺ حوله ـ وهم بطانة الخير التى يرزق الله تعالى بها كل نبى..

يجلس أبو بكر، وعمر، والمكلفون باكتشاف دليل الإدانه ـ علىٌّ والزبير، والمقداد.. وطائفة قليلةٌ ممن أراد لهم النبى ﷺ أن يشهدوا هذا الأمر...

سلّم الرسول الرسالة إلى حاطب وقال ﷺ «يا حاطب، ما هذا؟

ما حملك على هذا؟!!

أفعلت؟!!(1)

قال حاطب:

نعم!!

لحظةٌ كأنها العمرُ كله..

كأنها الدهر حتى ينفخ فى الصُّور!!

لحظةٌ ما أثقلها على النفس؟!!

حاطبٌ متهمٌ؟!!

بأية تهمة؟!!

(1) الأسئلة الثلاثة روايات مختلفة ذكرها ابن كثير فى البداية والنهاية ج٤/ ٢٨٤.

بالخيانة العظمى!!

ولمن؟ لله، ولرسوله، ولعامة المؤمنين!!!

الشهود: صحابة رسول الله

وجبريل عليه السلام

ومن فوقهم جميعاً، مَنْ يعلمُ السّر وأخفى، الله سبحانه وتعالى

دليل الاتهام:

خِطَابٌ كتبه المتهم بيده..

ويُؤَيّدُ هَذَا ويدعمُ الاتهام اعترافٌ بلسان المتهم

القاضى: أأنت فعلت هذا ؟!!

المتهم: باستحياء شديد، وخجل يكاد لا يحرك لسانه: نعم فعلت..

فماذا ينتظر القاضى إذن ؟!!

لكنه رسول الله .. صلى الله عليه وسلم

والمتهم هنا.. قد قالها معترفاً بمحض إرادته، فلم يتعرض للتعذيب لاستخراج اعتراف مزور، ولم يتعرض لضغوط نفسية تجبره على أن يتقول ما لم يكن، كلا.. إنه اعترف عن قناعة وعن رضا، قال: نعم فعلت.. وهذا يعطينا إيحاءً بأنه ما كان يقصد من وراء ذلك خيانة.. ولا غشاً للمسلمين..

وهذا ما فهمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما دلت عليه أقواله بعد..

فلنستمع إلى مرافعة المتهم ودفاعه عن نفسه

قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ

يا رسول الله: أما والله إنى لمؤمن بالله وبرسوله

ما غيرت ولا بدلت.

وما فعلت ذلك ارتداداً عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام.

أما إنى لم أفعله غشاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نفاقاً..

وارتفع صوته مختلطاً بدموع التأثر، وقال:

مظهراً دوافعه لهذا العمل:

غير أنى كنت غريباً بين ظهرانيهم، وليس لى فى القوم

من أهل ولا عشيرة..

وكان لى بين أظهرهم ولدٌ وأهل، فصانعتهم عليهم

وأحببتُ إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً[1] يحمون قرابتى..

وكانت والدتى معهم فأردت أن أتخذ يداً عندهم!!

وقد علمت أن الله مظهر رسوله ومتم له أمره

وغلب التأثر حاطباً، فسكت وقد خنقته العبرة [2]

فالتفت النبى إلى أصحابه قائلاً..

أمَا إنه قد صدقكم!!

إذن صدر الحكم ببراءة حاطب..

---

(١) أصنع فيهم معروفا يردونه لى عند الحاجة.

(٢) العبرة: جمعها عبرات وهى الدموع

غير أن عمر بن الخطاب قد غلبته الحمية التى لصقت به دائماً فنهض ممتشقاً سيفه قائلاً: يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم»[1]

. . : . .

إذن لقد خَلُص حاطب بفعلته . . ونجا من العقاب لسلامة نيته، ونظافة سجله . . . وشهادة الله لأمثاله ممن شهد بدرًا

وهنا تبرز عظمة الحاكم فى التريث عند الحكم، وفى الإلمام بأطراف القضية ودوافعها . . وفى النظر بعين الاعتبار لسجل المتهم وماضيه . .

غير أنا نثبت هنا أيضاً، أنه لو تحقق من جراء هذه الفعلة ضرر ما حقٌ بالمسلمين وفشلت خطة النبى صلى الله عليه وسلم فى تكتم أمر غزو مكة وفتحها لكان للقضية شأنها وعلى المتهم حكم آخر . . .

والنية هنا مناطُ العقوبة إذ إن النبىّ وجد حاطباً

لا يبغى تخريباً، ولا يريد فساداً . .

ومع هذا كله لم يسلم حاطب من اللوم الإلهى . .

ووضع الله عَزّ وَجَلّ فى قُرآنه ضوابط تضبط العمل مع الكافرين فى

(١) ذكر البخارى . . وفى لفظ الإمام أحمد «أتقتل رجلاً من أهل بدر، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم تفرد بهذا الحديث من هذا الوجه الإمام أحمد وإسناده على شرط مسلم المصدر السابق.

الولاء لهم، أو البراء منهم

تضمنته هذه الآية الكريمة:

﴿يا أيها الذين آمنوا[1] لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادًا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السبيل﴾

[سورة الممتحنة، الآية: ١].

الحب فى الله

(١) الملاحظ هنا أن الله سبحانه لم ينف الإيمان عن حاطب

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت: ٣٤٢٧٧٢١/٣٥٦٢٢٠/٣٥٦٢٣٠
ص.ب: ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

رقم الإيداع: ٩٥٤٢/ ١٩٩٤م
I . S .B .N : 977 - 272 - 226 - 7

هذا الكتاب

العلاقة بين طوائف الأمة فى الإسلام، علاقة مضبوطة بشرائع وضوابط تضمن لهذه العلاقة المسلمة ألّا ينفرط عقدها، أو ينفك رباطها وألّا يتسرب الوهن إلى صفوفها، أو ينخر السوس فى بنيانها،أو تؤتى من مأمن...أو تضرب فى مقتل..

علاقات محكومة بما أنزله الله تعالى من آيات، وما فرضه على الأمة من فرائض، وبما أودعه فى القرآن من آيات مبينات، وأحكام مفصّلات...وهى علاقات تحكم الأمر بين المسلم والمسلم وبين المسلم وأهل الكتاب، وبين المسلم وأهل الإلحاد والكفر .

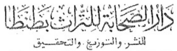
والآية التى بين أيدينا ــ وهى صدر سورة الممتحنة ــ تصورُ جانباً خطيراً من الآثار المترتبة على اتخاذ أعداء الله وأعداء الإنسانية أولياء وأنصاراً وأعواناً ذلك لأنه مهما ابتسم الكفر فى وجه الايمان فهى ابتسامة الذئب للحمل..

صدر من هذه السلسلة

١ـ والضحى
٢ـ سورة الشرح
٣ـ أن شانئك هو الأبتر
٤ـ الحب والبغض فى الله

وبالله التوفيق

د/ محمد عبد العظيم لماضة



دار الصحابة للتراث بطنطا
للنشر والتوزيع والتحقيق
شارع المديرية تليفون ٣٢١٥٨٧ ص.ب ٤٧٧